غابر الاندلس وحاضرها

(٦) اهل الاندلس

كان الجيش الذي فتح الاندلس بادئ بدء مؤلفاً من قليل من العرب ومن البربر سكان الغرب الاقصى والاوسط وما اليهما . نزل كل فريق منهم في بقعة فاعمرها واقطعهم القواد ما رحل عنه اهله من المزارع والمداشر . وقد فرق الحسام بن ضرار الذي ولي امارة الاندلس في سنة ١٢٥ وخضعت لسلطانه جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد وابعدهم عن دار الامارة قرطبة ان كانت لاتحملهم وانزلهم مع العرب البلديين اي السابقين الى الاندلس في سنة الفتح سنة ٩٢ للهجرة والشاميون هم الذين دخلوا سنة ١٢٥ . انزلهم على شبه منازلهم في كور شامهم وتوسع لهم في البلاد فانزل في كورتي اكشونبة وباجة جند مصر مع البلديين الأول وانزل باقيهم في كورة تُدمير وانزل في كورتي لبلة واشبيلية جند حمص مع الأول ايضاً وانزل في كورتي شذونة والجزيرة جند فلسطين وانزل في كورة ريه جند الاردن وانزل في كورة البيرة جند دمشق وانزل في كورة جيان جند قنسرين اي حلب وجعل لهم ثلث اموال اهل الذمة من العجم طعمة . وبقي العرب البلديون من الجند الأول على ما بأيديهم من اموالهم لم يعرض لهم في شيء منها . فلما رأوا بلاداً شبه بلادهم خصباً وتوسعة سكنوا واغتبطوا وتمولوا .

قال ابن الخطيب: أنزلوا القبائل الشامية في كُوَر على شبه منازلهم التي كانت في كُور شامهم وجعل لهم ثلث اموال اهل الذمة طعمة وبقي العرب والبلديون والبرابرة شركاءهم وسكنوا واغتبطوا وكبروا وتمولوا الا من كان نزل منهم لاول قدومه موضعاً رخيًا فانه لم يرتحل وسكن به مع البلديين . وحكى غيره انه نزل في البيرة من كان قدمها من جند دمشق من مضر وجلهم قيس وافناء قبائل العرب ونزل رية جند الأردن وهم يمن كلهم من سائر البطون ونزل شذونة جند حمص واكثرهم يمن وفيهم من نزار نفر يسير ونزل مدينة الجزيرة البربر واخلاط من العرب قليل ونزل في جيان جند قنسرين

والعواصم وهم اخلاط من العرب من معد واليمن ونزل قبائل البربر مدينة بلنسية .

وما عدا قبائل العرب والبربر الذين تفرقوا في بلاد الاندلس على ما رأيت كان فيها اخلاط من الشعوب من رومان وغوط ومهاجرة من اقطار شتى فامتزجوا كلهم في بودقة واحدة . قال هوار : ولما اصبح عبد الرحمن ملكاً على جميع اسبانيا الاسلامية (٣٢٠ — ٩٣٢) استند لقتال طبقة الاشراف من نسل العرب المهاجرين على الاسبانيين الذين دانوا بالاسلام وعلى كثير من الاسرائيليين والمسيحيين فتوصل بذلك الى جعل الكل امة واحدة عرفت في الشرق باسم الاندلس .

ولقد استمرت قبائل العرب الشاميين « في غمار من الروم يعالجون فلاحة الارض وعمران القرى يرأسهم اشياخ من أهل دينهم اولو حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم » فاحتفظ العرب بسكان البلاد الاصليين وهيأوا السبل لدخول المهاجرين اليها من المسلمين على اختلاف عناصرهم ومن غيرهم فاسلم كثير من اهل البلاد واختلطت انسابهم بانساب العرب وكان المغلوبون يقلدون الغالبين لاول الامر في مناحيهم وعاداتهم شأن المغلوب مع الغالب قال فوليه : بعد ان حكم العرب اسبانيا قروناً دخلتها كمية وافرة من الدم الافريقي فكان ذلك من موجبات ارتقاء العقل في اسبانيا ومزج الدم الاسباني بالدم العربي هو ولا شك من جملة الاسباب التي تحمل بالاسبان على اختلاف اصقاعهم الى الطموح الى العظائم ومراتب الشرف اه .

ولما دب الضعف في الاندلس اصبح العرب يتشبهون بجيرانهم من الافرنج . روى المقري : ان بني الاحمر كثيراً ما يتزيا سلاطينهم واجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم . وذكر ابن خلدون اوائل المئة التاسعة ان اهل الاندلس يتشبهون بام الجلالقة « في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء » فبعد ان كان القشتاليون والجلالقة دع ابناء الاندلس من غير المسلمين يتشبهون بالعرب اصبح هؤلاء في اواخر ايامهم يتشبهون بهم شأننا اليوم مع امم الغرب نقلدهم في ازيائهم ولباسهم وعاداتهم ونفسح المجال لكل ماينفقونه علينا من بضائعهم العلمية والاجتماعية سنة الله في الضعيف مع القوي .

امتزج المستعربة *Lesmozarabes* او المسيحيون الذين يتكلمون بالعربية في الاندلس بالقادمين عليها فلقي المعاهدون منهم رعاية من الفاتحين اللهم الا في الادوار التي كانوا يكيدون فيها للمسلمين ويخرجون عن الذمة فان الفقهاء كانوا يفتون بتغريبهم واجلائهم عن اوطانهم وقد اجاز منهم يوسف بن تاشفين الى بر العدوة «عدداً جماً انكرتهم الاهواء واكلتهم الطرق وتفرقوا شذر مذر» على انه لم يقع شيء من هذا القبيل الا في النادر لان العرب كانوا يحرصون على بقاء اهل البلاد فيها لعمل التطور عمله فيسلم من يسلم مع الزمن منهم او يعطي الجزية ويتعلم العربية فتخف الفوارق بينه وبين اهل عصبية الفاتح.

فمن ثم ساغ لنا ان نقول ان اهل الاندلس لم يكونوا كلهم من نسل العرب بل كان منهم العرب قال صاحب فرحة الانفس: اهل الاندلس عرب في الانساب والعزة والانفة وعلو الهمم وفصاحة الالسن وطيب النفوس وابائ الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما في ايديهم والنزاهة عن الخضوع واتيان الدنية. هندسيون في افراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم. بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة اخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة اذهانهم وحدة افكارهم ونفوذ خواطرهم. يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لاجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بانواع الخضر وصنوف الزهر فهم احكم الناس لاسباب الفلاحة وهم صبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الاعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع واحذق الناس بالفروسية وابصرهم بالطعن والضرب. وقال ابن حزم: ان اهل الاندلس صينيون في اتقان الصنائع العملية واحكام المهن الصورية. تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر في مهماتها. وقال ابن بسام: في جزيرة الاندلس اشراف عرب المشرق افتتحوها وسادات اجناد الشام والعراق نزلوها فبقي النسل فيها بكل اقليم على عرق كريم.

(٧) تسامح العرب

العرب من اكثر الامم تسامحاً مع المخالفين لهم في المعتقد والجنس واللسان، ولولا تسامحهم ايام عزهم بالاسلام، لم تبق بقية من امم المغلوبة في بلادها محتفظة بدينها

ولسانها ومقدساتها ، وذلك لان الشريعة السمحاء تقضي بالرفق والرحمة ، وعدم التعرض لدين المخالفين واموالهم خصوصاً اذا كانوا اصحاب دين سماوي ، ولذلك اكتفوا من اهل الاندلس بجزية[1] وتركوا لهم حريتهم ، فاعجب بهم مخالفوهم ، لانهم حملوا اليهم سلاماً ، وكفوهم مؤونة فتن كانت عليهم غراماً ، تأتي على الانفس والنفائس . وتدك معاقل الامن والامان .

كره العرب التعصب ولا سيما في الاندلس وعمدوا الى كل تسامح معقول فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا بينهم من الاسبانيين والبرتقاليين حتى انهم كانوا (سيد يليو) اذا شجر خلاف بين مسلم ومسيحي من الجند يعطى الحق غالباً للمسيحي وجعلوا ايام الآحاد ايام عطلة بدل الجمع ورخصوا ان يتعبد كل انسان على الصورة التي يراها فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب حتى لم يكد يشعر هذا الا في النادر وباغراء رجال الدين انه مغلوب على امره فاقد لاستقلاله واعتمد الامويون في اكثر ايامهم على جيش من الصقالبة يشترونهم او يأخذونهم اسرى كما كان يفعل العثمانيون بجيش الانكشارية وصارت لافراد من الصقالبة حظوة عند

(١) هذا كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش (غيدوس) الذي سميت باسمه تدمير اذ كان ملكها ونسخة هذا الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش انه نزل على الصلح وان له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم الا يقدم له ولا لاحد من اصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وانهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين اولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد وتحمي وادى الذي اشترطنا عليه وانه صالح على سبع مدائن اوريولة وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرة واية ولورقة وانه لا يؤوي لنا عدواً ولا يؤوي لنا عدواً ولا يخيف لنا آمناً ولا يكتم خبر عدو علمه ومن عليه وعلى اصحابه ديناراً كل سنة واربعة امداد قمح واربعة امداد شعير واربعة اقساط طلا (شراب من العنب غير مخمر وهو اشبه بالدبيبة في بلاد الشام) واربعة اقساط خل وقسطي عسل وقسطي زيت وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن ابي عبدة القرشي وحبيب بن ابي عبيدة ... ابن ميسرة الفهمي وابو قائم الهذلي وكتب في رجب سنة اربع وتسعين من الهجرة .

الملوك والامة حتى ان حبيباً الصقلبي من فتيان الامويين بقرطبة الف كتاباً تعصب فيه لقومه سماه (بالاستظهار والمغالبة على من انكر فضائل الصقالبة) . وربما كانت منزلة الصقالبة بقرطبة منزلة الشعوبية اعداء العرب في بغداد ولا من ينكر عليهم . ومن اثر التسامح شاعت اللغة العربية في كل ارض نزلها العرب بل لم يمض اكثر من نصف قرن حتى اضطر رجال الكنيسة ان يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها المسيحيون لان هؤلاء زهدوا في اللغة اللاتينية ونشأ لهم غرام بالعربية فاخذوا يتقنون آدابها ويتغنون باشعارها ويكتبون فيها كابنائها ويعجبون ببلاغتها إعجاب اهلها بها .

وكان كثير من اذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافار بين دع من كانوا في البلاد التي فتحتها العرب من المسيحيين يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الاندلسي او احد رجاله يستخدمون في الادارات وتجري على سادات الاسبان احكام الاسلام فيختلطون باشراف العرب ومن ظل محتفظاً منهم بدينه نسي مبادئه فصار يحجب نساءه كالمسلمين ويقتدي بازيائهم والبستهم وعاداتهم في مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم . ومن المسيحيين والاسرائيليين من وزروا في الاندلس للملوك المسلمين وهم مقيمون على دينهم ومنهم من كان ابوه او جده اسبانياً فاسلم[1] والمسلمون لا يضنون بشيء على اهل ذمتهم يحرصون عليهم الرواتب والارزاق كما تجري على بطانتهم واهل نحلتهم ويأمنونهم على مصالحهم ويقتدبونهم في سفاراتهم ويطلعونهم على اسرارهم ويأمنون الاطباء منهم على ارواحهم وحرمهم

وشاع زواج العرب بالاسبانيات والبرتقاليات اللائي كن يجالهن اجمل صلة لتمازج الفاتحين بخصومهم والتحام القرابات بينهم بل ان ملوك المسيحيين على عهد توزع الاندلس بين ملوك الطوائف امسوا يتزوجون من بنات الامراء المسلمين فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة امير اشبيلية وعقد مثل هذ الزواج كثيراً وكان عدد المتزوجات من الاسبانيات والبرتقاليات بالمسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الاسبانيين والبرتقاليين آخر ايام الاندلس كثيراً جداً حتى جرى لذلك كلام في الشروط التي تمت بين الغالب والمغلوب .

ومن العرب من آثر زي الاسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج وكف

(١) راجع نبذة في امتزاج العرب بالعجم في اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقاب في كتاب (السفر الى المؤتمر) .

بلسانهم مثل محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الاندلس (٥٦١) وكثير من الوزراء كانوا يعرفون لسان جيرانهم مثل محمد بن الحاج (٦١٤) ويتشبهون بهم في الاكل والحديث وكثير من الاحوال والهيئات .

هذا ما عمله الغالبون المسلمون من العرب مع المسيحيين المغلوبين من الاسبان والبرتقاليين اما معاملاتهم للاسرائيليين فكانت ايضاً مما يدهش له فاصبح لهؤلاء في الاندلس منزلة سامية في العلم والصنائع والتجارة وكانت غرناطة في القرن العاشر تدعى مدينة اليهود لكثرتهم ومكانتهم فيها .

اصبح اهل البلاد يتكلمون بالاسبانية والبرتقالية والعربية على السواء واخذوا بعد حين لا يتعاقدون بينهم الا باللغة العربية وقد وجد من عقودهم نحو الفي صك من هذا القبيل كتبها المستعربة من اوطنيين الاصليين باللغة العربية . العربية كانت لسان القائمين بالدولة الاسلامية بحر ما عداها في جميع الممالك فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب . هجر الامم لغاتهم والسنتهم في جميع الامصار والممالك التي خفقت عليها رايات الفاتحين وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع امصارهم ومدنهم . صارت الالسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة عنها قاله ابن خلدون .

ولذا اتت ثلاثة قرون على بقايا الاسبانيين المتراجعين الى الجبال الشمالية وقد نسيت تقاليد البلاد الا من استوريا وما اليها من الاصقاع واضطرت الحكومات الصغرى التي اعتصمت في اقصى الشمال ان تصانع وتعاهد وتتعلم من اعدائها وهم ارقى منها نظاماً ومدنية وحكومات اوربا الكبرى لذاك العهد تطلب رضاها وتتعلم منها وتتلطف معها حتى بلغ الامر بعبد الرحمن الثالث الذي اشبه ملكاً من ملوك هذا العصر لا ينقاد لاوهام العنصر والدين ولا يتوقف في امر فيه مصلحته وتسير سياسته بحسب الاحوال — ان وجد له حلفاء من زعيم البربر الى ملك ايطاليا الى امبراطور القسطنطينية وكانت سفراء فرنسا واليونان والالمان تتوارد على قرطبة وقد وضع هذا الخليفة حداً للحروب بين العرب والاسبانيين والبربر في الاندلس وحصن حدود مملكته من ملوك ليون وقشتالة ونافار واستولى باسطوله على غربي البحر المتوسط وبسط سلطانه على افريقية

الشمالية فكان ميسين[1] العلوم والفنون وحامي التجارة والصناع وقد اصبحت اسبانيا العربية على عهده وعهد اخلافه في القرون الوسطى اكثر البلاد مدنية وحسن ادارة — قالته دائرة المعارف الاسلامية .

لا جرم ان خلفاء الاندلس كانوا من التسامح مع الكافة بالمكان الذي يغبطون عليه ويجب التنويه به لانه لم يسبق له نظير في عصورهم عند الامم الاخرى فقد جاء من خلفائهم من كانوا يبيحون لدعاة النصرانية ان ينشروا دينهم احراراً و بلغت الحال ببعض المتحمسين منهم ان كانوا يقفون على ابواب الجوامع ليتسقطوا المسلمين بالدعوة الى دينهم وكان عبد الرحمن الثاني عزم ان يجمع مجمعاً مقدساً من النصارى برئاسة رئيس اساقفة اشبيلية لقمع عادية التعصب الاسباني اذ اخذ دعاة الدين المسيحي يسبون الاسلام جهاراً حتى يقتلوا في سبيل دعوتهم وتكتب لهم الشهادة بزعمهم ولكن الخليفة مات قبل التئام هذا المؤتمر سنة ٢٣٨

ولطالما ازرى خلفاء الاندلس العنان خطبائهم ووعاظهم ومؤرخيهم وكتابهم . يوسعون المجال لاقلامهم والسنتهم حتى في اعمال الخلفاء ولا يجدون منهم الا لطفاً وعطفاً ذلك ان الناصر كان كلما بعارة الارض واقامة معالمها وتكثير مياهها واستجلابها من ابعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه وعزة سلطانه وعلو همته فانه لما ابتنى الزهراء واستفرغ وسعه في تجويدها واتقان قصورها وزخرفة مصانعها انهمك في ذلك حتى عطل الجمعة بالمسجد الجامع فقرعه القاضي منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة بخطبة على المنبر امام جمهور المؤمنين ابتدأها بقوله تعالى (اتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون واتقوا الذي امدكم بما تعلمون امدكم بانعام و بنين وجنات وعيون اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ثم افضى الى ذكر المشيد والاستغراق في زخرفته والسرف في الانفاق عليه

(١) ميسين هو نديم اغسطس قيصر الروماني استعمل نفوذ مولاه لتنشيط الآداب والعلوم فاغدق نعمه على فرجيل وهوراس وبروبرتوس واصبحت كلمة ميسين مرادفة لحامي الآداب والعلوم والفنون ومات في السنة الثامنة قبل المسيح .

فجرى في ذلك طنقاً وتلا فيه قوله تعالى (افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من اسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا ان تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وانصرف الخطيب في تروع الخليفة وتقريعه ولم يحسن السياسة في وعظه فاستشاط الخليفة غضباً واقسم ان لا يصلي خلف الخطيب الجمعة ابداً فقال له الحاكم . وما الذي يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به فزجره ابوه وانتهره وقال : مثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه لا أم لك يعزل في ارضاء نفس ناكبة عن الرشد . . .

مثال آخر : شنع احد المؤرخين على احد الملوك المعاصرين في الاندلس لخنق ابن الملك وهم بقتل المؤرخ فلما شعر ابوه بذلك قال له اليك عن هذا الفكر الخبيث ولئن قتلته لاكونن انا المطالب بدمه . نقتله ليعيرنا الناس باننا نقتل مؤرخينا . حتى اذا مضت أيام دخل المؤرخ الحمام ليستحم فلما خرج ليلبس ثيابه رأى فيها صرة تضم الف دينار ورقعة من الملك يقول فيها ان الذي اوصل اليك هذه الدراهم وانت لا تشعر قادر ان يرسل اليك من يقتلك فكيف غرب لسانك عنا واذا عدت فأرخت ثانياً لا تشنع علينا اعمالنا . قال دوزي اذا قيست حرية العرب بحرية الافرنج تشبه هذه الاستبداد .

وما زال هذا التسامح المحمود حتى انتقل ملك العرب في الاندلس الى المرابطين والموحدين وكانوا افريقيين لا يخلون من شيء من التعصب وليس فيهم تسامح الامويين العرب فتبدلت الحال بعض الشيء وذهبت او كادت طلاوة تلك المدنية التي اقاموها وكانت لا بالغربية ولا بالشرقية فبهر خبرها ومخبرها لولا ان قام الملوك من بني نصر في غرناطة ورأبوا الصدع وجبروا الكسر وكانوا كلما صغرت رقعة ملكهم زادت الرقعة البافية ارتقاء فتنتقل القوة والنفوس من بلد زال عنها سلطانهم الى بلاد يرفرف عليها علمهم . ويزيد ملوكهم تسامحا مع ذمتهم ومجاوريهم وهمة في تعهد صناعاتهم وزراعتهم وعمران مدنهم التي حصنوها بالعدل والاحسان .

***

(٨) العرب والاسبان

قال بعضهم لو لم يقم كوفيس[١] بحروب دينية في القرن الخامس لتعذر على المسلمين فتح اسبانيا ونحن نقول لو لم يفتح العرب الاندلس ويحمل اليهم عبد الرحمن الاموي مدنية قومه لتأخرت المدنية الحديثة قرونا عن الظهور في ربوع اوربا[٢] وقد اجمع المنصفون ان العرب لو لم يخلوا عن الاندلس لكانت حال اسبانيا اليوم ارقى مما هي بمراحل ولا يؤمل لهذا الشعب وقد رأى صنوف العذاب من رجال الدين ورجال الحكم وأكلت نوابغه الحروب والاستعمار وديوان التفتيش الديني ان تنشأ له نهضة كنهضة ايطاليا في القرن الخامس عشر تنتقل منها الى اوربا باسرها.

وان المرء اذ نزل اسبانيا اليوم ليشعر ولا سيما في القسم الجنوبي منها انه في بلاد عربية لو كان لسان القوم العربية ويرى كثيراً من السحنات اشبه بوجوه العرب منها بوجوه الامم اللاتينية وبعض عاداتهم وطبائعهم لنا عن روح عربية على سعي رجال الدين في نزعها من بينهم منذ استعادوا اسبان ارض الاندلس اواخر المئة التاسعة. لاجرم ان اربعة قرون ونصفاً لم تكف لان تنزع من القوم ما تأصل فيهم في ثمانية قرون وتمثلوه وتمثل بهم من مدنية العرب.

ذكر بعضهم ان في الاندلس اهم آثار اسبانيا والاندلس من اسبانيا بمثابة اقليم البره فانس في جنوبي فرنسا وصقلية من ايطاليا وقد جمعت الاندلس جميع المحاسن والغرائب المبعثرة في طول اسبانيا وعرضها ولهجة الاندلس مائلة الى العربية كثيراً

---

(١) كوفيس (٤٦٥ — ٥١١) ملك الفرنجة (فرنسا) سنة ٤٨١ افتتح صقع باريز واستخلصه من ايدي الرومان سنة ٤٨٦ واستولى على ولاية الاكيتين من القيزيغوت وغلب الالمان سنة ٤٩٦ والبورغوند سنة ٥٠٠ ودان مع امته بالنصرانية سنة ٤٩٦ فكان اول من وحد بلاد غاليا (فرنسا) في دينها وسياستها.

(٢) من تاريخ الكنيسة تعريب هنري جسب قال موسهليم الجرماني: حق علينا ان نقول ان العرب ولا سيما عرب اسبانيا هم اصل وينبوع كل معرفة في الطب، والفلسفة والفلك والتعاليم التي بزغت في اوربا منذ القرن العاشر فصاعداً.

والاحتفالات والاخلاق قد حفظت فيها الاساليب العربية .

نعم لا تزال تسمع في اللغة الاسبانية كثيراً من الالفاظ العربية من اسماء البلاد والانهر والنواحي وبعض المرافق والمصطلحات وكل كلمة تبدأ عندهم بأل التعريف العربية هي عربية لا محالة ومن الاسماء مايبدأ ببني ومنها مايبدأ بوادي فدخلت مئات من الالفاظ في اللغة الاسبانية وتأصلت فيها كما دخلت البرتقالية والايطالية والافرنسية لغات الامم اللاتينية وهي ظاهرة كل الظهور في اللغة الاسبانية واقل منها في اللغة البرتقالية والى اليوم تسمع بوادي الرامة ووادي الحجارة ووادي القنال ووادي البياضة ووادي الكبير وقلعة وقليعة والرملة وقصبة وقصر ومدينة وجنة والمدور والبطاقة والقنديل والانبيق والساقية والمنارة والربض والمسجد والرع والشمسية والفندق والمحراب ومئات غيرها افردها علماء اللغة منهم بالتأليف .

اخذ الاسبان عن العرب اشياء ظنوها بعد من مصطلحات اجدادهم وبنات افكارهم وتأصلت فيهم من حيث يشعرون ولا يشعرون . حدثني الثقة ان احد علماء المشرقيات من الاسبان وهو موسيقار يحسن العربية ويطيع الآن كتاباً يثبت فيه بالادلة التاريخية ان الموسيقى الكنائسية في القرن الثالث عشر كانت مقتبسة من الموسيقى العربية ويخيل لمن يسمع الموسيقى الاسبانية والغناء الاسباني ويرى الرقص الاسباني انها عربية الا قليلاً بحيث ساغ لنا ان نقول اذا كان الرومي شرقياً « تأورب » واستغرب فالاسباني عربي شرقي « تأورب » واستغرب ايضاً

ولا تزال الى اليوم . ترى كثيراً من النابهين من الاسبانيين يدعون ان اصلهم عربي يذكرون ذلك مفاخرين ويعدون ذلك من امارات الشرف والتغني بذكرى القديم الجميل . وقد رأينا الاسبانيين في القرن التاسع عشر والعشرين نهضوا نهضة لا بأس بها للبحث عن ماضيهم اوماضي اسبانيا الاسلامية وصرفوا في ذلك وقتاً ومالا وتوفر على هذا العمل طائفة منهم حرصوا اجمل حرص على الاخذ من المدنية العربية ليكفروا عن سيئات اجدادهم الذين عوروا بعملهم مصانع العرب وخططهم وحرقوا ومزقوا اسفارهم وآثارهم ،

اذكر مثالين من هذه النهضة يعدان في الباب الاول من ابواب تسلسل الفكر

الراقي والدؤوب المحمود وهو مما يقل الآن فينا بعد ان اورثنا الاسبانيين اخلاقنا وطباعنا واليكم البيان : قال لي الاستاذ الاب آسين بلاسيوس مدرس العربية في جامعة مجريط واحد اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وانا انظر خزانة كتبه : جمع اكثر هذه الخزانة استاذي ربيرا وفيها كتب كثيرة مطبوعة واهمها الجزازات « الفيش » التي رتبها طول حياته وفيها اسماء ثلاثين الف عالم من علماء الاندلس وقد استنسخها البرنس ليوني كايتاني الايطالي صاحب تاريخ الاسلام الكبير ليطبعه في جملة مايطبع من آثار العرب . قال لما كنت في بلدي وجئت مجريط لاعمل مع استاذي احمل ما تيسر لطالب جمعه من الكتب ضممت مجموعتي الى مجموعته في هذه الدار ولما حانت وفاته وكان عز بًا اوصى لي بكتبه على ان اشتغل بها مدة حياتي وافتح ابوابها لطلاب الاستشراق ثم اتركها كما تركها هو لمن ارى فيه الكفاءة للعمل بعدي او اجعلها في احدى دور الكتب العامة .

هذا هو المثال الاول والمثال الثاني مجموعة السنيور اوسما *Osma* ناظر مالية اسبانيا سابقًا وهي من النسيفساء والقيشاني الاسباني والسلاح والرخام والسجاد والادوات والاواني الفضية والزمردية والاواني الخزفية والبلورية والالبسة والنقوش والتصاوير والاعمال الخشبية والنقود العربية والاسبانية ذهبية وفضية ونحاسية من صنع عرب الاندلس وصنع اسبانيا المسيحية في القرون الوسطى هذا عدا وثائق تاريخية وسجلات من القرن السادس عشر من الآثار النصرانية وقد بدأ بجمع هذه المجموعة عم السنيور اوسما والد زوجته واحد اشراف اسبانيا منذ زهاء خمسين سنة ودامت ابنته بعده وزوجها يطرسان على آثار هذه المغالي بالآثار الاسلامية والنصرانية . ولما جاءتها الوفاة اوصت بالقسم الذي جمعته في حياتها والذي ورثته عن ابيها لزوجها السنيور اوسما على ان تدعى المجموعة كلها باسم لقب والدها فسميت مجموعة مجمع بلنسية للدوق خوان *Jostituto de Valencia de Don* وصحت عزيمة الوزير الاسباني ان يضيف الى المجموعة ماجمعه في حياته ويجعله في دارين بناهما في اهم احياء *Juan* مجريط الحديثة فبنى الدار الاولى على الطراز الاندلسي والثانية على الطراز المسيحي في القرون الوسطى وكلا الدارين متلاصقان جعلت كل مجموعة في الدار التي تناسبها

فاصبحت الداران متحفاً مرتباً ترتيباً علمياً رافياً بمعرفة صاحبها الآن واشارة من يختلف الى داره من غلاة العاديات والآثار وحملة العلوم والفنون الذين يضمهم في ناديه مرة في الاسبوع يتفاوضون الصناعات والنفائس . وقد وقف الوزير المولع بالآثار مؤخراً مجموعته البديعة واقام عليها خمسة من الامناء منهم الاستاذ آسين المشار اليه ووقف عليها مبلغاً من المال لا يقل عن خمسة ملايين بستاس او نحو عشرة ملايين فرنك بحسابنا اليوم واعطاها خزانة كتبه البالغة الفي مجلد على ان تبقى مجموعته ويزاد فيها ليدرس تاريخ الصنائع والفنون في اسبانيا وقد توخى في وصيته تنشيط الطلبة الوطنيين والاجانب على درس هذا الفرع من العلم في اسبانيا وخص المولعين بهذا الشأن من الانكليز ممن يصرفون مدة في محريط لهذا الغرض يدرسون مجموعته فيعاونهم معاونة مالية وخص من الانكليز طلبة جامعة اكسفورد لانه درس فيها في صباه فاراد ان يعنى عناية خاصة بمن يتخرجون فيها .

هذان مثالان من عناية الخلف بآثار السلف ولو قام في اذهان خاصة الاسبان مثل هذه الافكار منذ جلاء العرب عن بلادهم لكانت اليوم مجاميعهم ومجموعاتهم اعظم ثروة خلفتها امة مغلوبة لامة غالبة ولعدت في اسبانيا من اكبر موجبات فخرها كما تربح ولايات الاندلس اليوم من بقايا الآثار العربية التي يقصدها السياح من عامة اقطار الارض

(للبحث صلة)

محمد كرد علي